الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

الملاءمة التفاضلية للخطاب عند أبي بكر الباقلاني (403هـ) من خلال كتابه (إعجاز القرآن)

The Differential Congruence of Discourse for Abou Bak Al-Bakalani (403H) through his Book the 'Inimitability of the Quran'

د.لزهر كرشو
أستاذ بجامعة الشهيد حمة لخضر-الوادي-
Lazharkerchou@gmail.com

ملخص

يحاول هذا البحث أنْ يستثمر في كتب (إعجاز القرآن) عن طريق قراءتها قراءةً تتجاوز وصف النظم القرآني المعجز إلى تحويل نقاط القوة فيه إلى مُسعفاتٍ تعملُ على تطوير نَظْم الخطاب العربي عموما، وذلك بواسطة الاستعانة بنظريةِ الملاءمةِ في قراءةِ المعاني العشرة التي عرضها أبو بكر الباقلاني في مفاضلته بين الخطاب القرآني المعجز وخطاب فصحاء العرب، قصدَ ترقيةِ نظْمِ الخطابِ العربي إلى رتبة تصديق اللفظ للمعنى، وترجمة المعنى للقصد، وآلةُ ذلك الاستفادة من نتائج أفضلية إعجازية الخطاب القرآني على غيره من خطابات فصحاء العرب.

الكلمات الدالة: الملاءمة، الملاءمة التفاضلية، نظرية الملاءمة، ملاءمة الإعجاز.

Abstract

This research attempts to invest in the inimitability of the Quran books through a reading which goes beyond describing the inimitable Quranic verses to transforming the areas of strength as a reliever which tends to develop the Arabic discourse systems as a whole. This is implemented by means of the Congruence theory in reading the 'Ten Significances' provided by Abou Bak Al-Bakalani in his differentiation between the inimitable Quranic discourse on the one hand, and the discourse of the Arab fluent orators on the other. This leads to the promotion of the Arabic discourse systems to the point that meaning will validate the lexicon, and interpret the speaker's intention, benefiting from the priority of the inimitability of the Quranic discourse over the other types provided by the Arab orators.

Keywords: *Congruence, Congruence Theory, Differential Congruence, Inimitability Congruence .*

مقدمة

ما زال الخطابُ موضوعَ درسٍ وإثراءٍ على مرِّ العصور، وكرِّ الدهور؛ وذلك لدالّته المتميّزةً على جوهر الإنسان بصفته فكرًا واعتقاداتٍ وثقافاتٍ وحضارةً، فالخطابُ وحده هو الحاضن لمآثر التاريخ، والراصد لطموحات الأمم وتطلعاتها، والكاشف عن إراداتها ومنجزاتها، والناقل الأمين لمقامات مستعمليه وملابسات مستخدميه، ولمّا كان الخطاب على هذا المدرج من الأهمية تكوثرت فيه الدراسات، وتعدّدت حوله الرّؤى والاتجاهات. والمعروف أنّ الخطاب يتسم بسمتين: « تعدّيه الجملة من حيث حجمه، وملابسته لخصائص غير لغوية دلالية وتداولية وسياقية » [1]، وأنّه متفاوتٌ من حيث قيمتُه الإبلاغية والفنية والجمالية، وآلةُ تفاوته معاييرُ متعددة أبرزها ما يُعرف بالبلاغة التي هي فن الخطاب الجيّد، وينقسم الخطاب بآلته البلاغية إلى: خطاب معجز، وخطاب البلغاء،

وخطاب العوامّ، وفي ذلك يقول أبو الحسن الرماني (386هـ): « ... فأمّا البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط، بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس ... »[2]، وهذا التصنيف الطّبقي للخطاب هو تصنيفُ ملاءمةٍ بالدرجة الأولى؛ بمعنى أنّ كلّ طبقة تتمتّع بمعايير تفاضُليّة عن الطبقات الأخرى، وهذه المعاييرُ متصلةٌ بنظرية الملاءمة في شقّها المتعلّق بتفسير الملفوظات وظواهرها البنيوية في الطبقات المقامية المختلفة.

سيحاول بحثنا أنْ يرصد الملاءمة التفاضلية التي أجراها أبو بكر الباقلاني (403هـ) في كتابه (إعجاز القرآن) بين الخطاب القرآني المعجز، وخطاب البلغاء العرب، مُبتغين من وراء ذلك تتبُّعَ معايير ملاءمةِ الفاضلِ المُعجز على ملاءمةِ المفضولِ البليغ غيرِ المعجز، مستعينين في بيان نجاعة تلكم المعايير بنظرية الملاءمة من خلال مكانيزماتها المكوِّنيّة ، قصدَ رسم خريطةِ ملاءمةٍ يرقَى بوساطتها المفضول إنتاجيةً إبداعًا أحسَن مما هو عليه، لا ليصل إلى رتبة الفاضل المعجز، بل ليحسّن بلاغة المفضول إبلاغا وقيمةً (فنيةً كانت أم جماليةً)، وسنعتمد في إبراز كلّ هذا في خطة قوامها: تعريفٌ نظري للملاءمة التفاضلية للخطاب من خلال الاستعانة بمفهوم نظرية الملاءمة، ثمّ عرضٌ موجزٌ لوجوه الإعجاز العشرة التي فصّلها أبو بكر الباقلاني، وبعدها يتم الرصد التطبيقي للمعايير المتعلّقة بالملاءمة التفاضلية التي قدّمها البقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) في مقارنته بين الخطاب القرآني المعجز والخطاب البشري البليغ.

1. الملاءمة التفاضلية للخطاب

الملاءمةُ مصدرُ الفعل (لأَمَ ولاءَمَ)، وهي بمعنى الموافقة والجمع، وفي ذلك يقول ابن منظور: « ... لأَمَ ولاءَمَ بين الشيئين إذا جمع بينهما ووافق ... »[3]، ويعضده الفيروز أبادي بقوله: « ... ولاءَمه ملاءَمةً: وافقه... »[4]، ولا تكون الموافقة أو الجمع إلا بعد المناسبة بين مكوّنات المتوافِقَيْن أو المجموعَيْن، والمقصود بالملاءمة التفاضلية للخطاب في هذا البحث هي مناسبة الخصائص المكوّنية للخطاب (النصية وغير النصية) وموافقتها لتصنيفه رُتبيًا في الموضع التفاضلي الذي يستحقّه مقارنةً بغيره من الخطابات المُدرَجةِ في السلم التفاضلي، والعمدة في ذلك الاستعانة بنظرية الملاءمة.

أما عن نظرية الملاءمة La Théorie de la pertinence فهي في الأصل نظرية تداولية معرفية، ومصداق ذلك قول جاك موشلار Jacques Moeschler وأنطوان أوكلان Antoine Auchlin : «La Théorie de la Pertinence est une théorie pragmatique originale »[5]، وقد أرسى معالمها كلٌّ من اللساني البريطاني ديردر ولسن D. Wilson والفرنسي دان سبربر D. Sperber، وتتجلى الأهمية التداولية لهذه النظرية في أمرين[6]:

- أنّها تنتمي إلى العلوم المعرفية الإدراكية.

- أنّها تبيّن وبدقة موقعها من اللسانيات، وخصوصا موقعها من علم التراكيب.

وعلية فنظرية الملاءمة « تدمج، إذن، بين نزعتين كانتا متناقضتين؛ فهي نظرية تفسّر الملفوظات وظواهرها البنيوية في الطبقات المقامية المختلفة، وتعدّ في نفس الوقت نظرية إدراكية »[7]، وهي بذلك تربط بين تفسير الملفوظات المتلبّسة في مقامها مع المعرفة الإدراكية من خلال كشفها عن العملية الذهنية الداخلية. وتدمج هذه النظرية بين مشروعين معرفيين، وهما: النظرية القالبية لفودود Fodor، والنظرية الحوارية أو المحادثية لغرايس Grice[8].

أمّا النظرية القالبية فتقوم على نظامين: أنظمة المُدخلات Les systémes d' entrées، ونظام الفكر المركزي Le systéme central de la pansée، ويمرّ هذان النظامان على ثلاث مراحل: مرحلة المحوّلات Les transducteurs، ومرحلة أنظمة الدّخل Les systémes d' inputs ؛ والتي تقوم بوظيفة فك التشفير Décodage linguistique، ومرحلة المعالجة المركزية Le traitement central [9].

أمّا النظرية الحوارية أو المحادثية فقد قلصت نظرية الملاءمة من محتوياتها؛ وذلك أنّها اقتصرت على (مبدأ الملاءمة) كمسلّمة مركزية غير المسلمّات المشهورة لنظرية الحوار (كمبدأ التعاون) مثلاً، وأرادت نظرية الملاءمة من خلال مبدئها المختزِل لجميع المسلمات المشهورة لنظرية الحوار أن ترسي دعائم التواصل بما يُعرف بـ (المناسب الاستدلالي)؛ والمقصود به « أن ينتج المتكلّم مثيرا واضحا للمخاطب، فيصبو الأوّل إلى جعل مجموعة من الافتراضات واضحة أو أكثر وضوحا لدى المخَاطب »[10].

وأهمّ مَعْلَم تتميز به نظرية الملاءمة تصوّرُها للسياق؛ من حيث إنّها تراه يُبنى تِباعًا من سلسة الأقوال، وليس معطًى نهائيا أو محددًا قبل عملية الفهم، ويتألف من (زمرة افتراضات) تتخذ من: تأويل الأقوال السابقة، والمحيط الفيزيائي، وذاكرة النظام المركزي مصادرَ لها [11]، وجدير بالذكر أنّ الذاكرة المركزية تخزّن ثلاثة أنماط من المعلومات: المدخل المعجمي (L'entrée lexicale)، والمدخل المنطقي (L'entrée logique)، والمدخل الموسوعي [12] (L'entrée encyclopédique).

هذه لمحةٌ مختصرةٌ جدًا عن نظرية الملاءمة، وسنفيد منها – في بحثنا هذا – ما يثبت مُكنة أبي بكر الباقلاني على تحديد المعايير الناطقة بأسرار إعجاز الخطاب القرآني في مقارنته التفاضلية مع الخطاب البشري البليغ، وهي الأسرارُ ذاتُها التي تكشفُ مكامنَ النقص والهناتِ في بلاغة البلغاءِ وبيانِ الفصحاءِ من العرب؛ وتكمن الإفادة من نظرية الملاءمة – على وجه الخصوص – في شقها المتصل بتفسير الملفوظات المتلبّسة في مقامِها تفسيرًا يفضي إلى كشف المعرفة الإدراكية للمتلقي المتصف خطابُه

بالبليغ ، وذلك باستكناه العملية الذهنية الداخلية للمخَاطب صاحب الخطاب البليغ المفضول بعد مقارنته بالخطاب القرآني المعجز، وعليه فالملاءمة التفاضلية بين الخطابين تكشف عن قيمة الخطاب الفاضل (الخطاب القرآني المعجز) في ترقية الخطاب المفضول (الخطاب العربي البليغ)، عن طريق رسم معايير المثال الذي يستهدي به الخطاب المُحاكي إلى إصلاحَ ما يعتوره من نقص في القدرات الذهنية المُنتِجة وفي النصوص المنتَجَة، وليست الغاية من ذلك أنْ يصل إلى رتبة المعجز بل ليرقّي من قيمته الإبلاغية والفنية والجمالية.

2. وجوه الإعجاز في كتاب (إعجاز القرآن) لأبي بكر الباقلاني

سيتخذ بحثنا من المقارنة التي أجراها أبو بكر الباقلاني(*) (403هـ) بين الخطاب القرآني المعجز وبين الخطاب البشري البليغ في كتابه (إعجاز القرآن) مرشدا لمعايير الملاءمة التفاضلية، وسرُّ اختيار كتاب أبي بكر الباقلاني تتمثل في « أهميته، وشدة تأثيره فيمن جاؤوا بعده، ويكفي أن نعلم ما أحدثه من أثر في عبد القاهر الجرجاني وكتابه (دلائل الإعجاز) للتدليل على قيمته الأدبية والنقدية، فصُلبُ نظرية (النظم) التي جاء بها عبد القاهر موجودٌ في كتاب (إعجاز القرآن)، وما فعله عبد القاهر في (الدلائل) هو إعادة قراءة لمنهج الباقلاني في الكلام على القرآن الكريم وإعجازه »[13]، والأهمية الثانية التي يحظى بها كتاب الباقلاني (إعجاز القرآن) هو معاصرتُه لكتابي أبي سليمان الخطابي (388هـ) وأبي الحسن الرماني (384هـ) في إعجاز القرآن، فرغم معاصرته لهما إلا أنّ « الأهمية التي تمتّع بها الباقلاني تجعل من الصعب التصوّر أنّه هو الذي تأثر بهما، وإن كان قد توفي بعدهما بسنوات معدودات، فإنّ ذلك لا ينفي أن يكون قد ألّف كتابه (إعجاز القرآن) قبل ذلك بزمن »[14]، وبصرفِ النّظر عن الأسبقية الزمنية للتأليف بينهم فالأهمية التي لقِيَها مؤلَّف الباقلاني تشهد بالقيمة العلمية لكتابه إذا ما قورن بغيره، ولا سيما في مقارنته لبيان الخطاب المعجز بالخطاب البشري البليغ.

وممّا تجدر الإشارة إليه – قبل الخوض في معايير الملاءمة التفاضلية للخطاب – أنّ أبا بكر الباقلاني كان أشعريَ المذهب والقناعة، فقبْل تناوله لوجوه الإعجاز العشرة عرض وجهة نظر الأشاعرة لوجوه الإعجاز فقال: « ذكر أصحابنا [قاصدا بهم الأشاعرة] وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز: **أحدها**: يتضمن الإخبار عن الغيوب، وذلك ممّا لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه، ... **والوجه الثاني**: أنّه كان معلوما من حال النبي صلى الله عليه وسلم، أنّه كان أميّا لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفا من حاله أنّه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدّمين، وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثمّ أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير .... **والوجه الثالث**: أنّه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحدّ الذي يُعلَمُ عجز الخلق عنه »[15]، غيرَ أنّ المزية التي أراد الباقلاني الإنفراد بها كانت في تفصيل الوجه الثالث الذي أورده العلماء قبله مجملاً، وبرهان ذلك قول الباقلاني: « والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة، ونحن نفصّل ذلك بعض التفصيل، ونكشف الجملة التي أطلقوها. فالذي يشتمل عليه بديع نظمه، المتضمن للإعجاز وجوه: ... »[16].

وقد فصّل الباقلاني في وجوه الإعجاز المتصلة ببديع نظم القرآن الكريم في عشرة وجوه؛ يمكن خصرها ثم استثمارها في استنباط معايير الملاءمة التفاضلية وقدرتها على ترقية الخطاب المفضول، أمّا عرض الباقلاني لها فكان كما يلي[17]:

المعنى الأول: خروج نظم القرآن عن معهود كلام العرب من شعر وسجع وترسّل

المعنى الثاني: طول النفس في فضائل الفصاحة وبديع البلاغة بالقدر الذي لا قِبلَ للعرب به.

المعنى الثالث: عجيب نظم القرآن أنْ لا تفاوت فيه ولا تباين، بخلاف كلام العرب فهو متفاوت ومتباين...

المعنى الرابع: كمال الانسجام في الفصل والوصل في نظم القرآن بين المعاني ومختلف الوجوه البلاغية ...

المعنى الخامس: تعصّي نظم القرآن على الجن والإنس؛ كونه مخالفا لعاداتهم البلاغية والتأليفية.

المعنى السادس: تلوّن الخطاب القرآني بكافة ألوان الطيف البلاغي بخلاف كلام الفصحاء من العرب

المعنى السابع: براعة اللفظ في المعنى البديع في أصل وضع الشريعة والأحكام، وهو ممّا يتعذر على البشر ويمتنع.

المعنى الثامن: فضل الكلام ورجحان فصاحته في نظم القرآن أبلغ منه في كلام فصحاء العرب، بحيث إنّ الكلمة فيه يتجلى رونقها في تضاعيف كلام كثير ...

المعنى التاسع: دقةُ توزيع الحروف في نظم القرآن دقةً يعجز على نظمها غيره.

المعنى العاشر: النظمُ القرآني جامعٌ بين سهولة التناول والفهم واستحالة التقليد أو المماثلة.

3. معايير الملاءمة التفاضلية وقدرتها على ترقية الخطاب المفضول

بعد القراءة المتأنية للمعاني الإعجازية المتصلة بالنظم القرآني، والتي رصدها أبو بكر الباقلاني، يمكننا استثمار فحواها في استنباط معايير الملاءمة التفاضلية، من خلال نهج أبي بكر الباقلاني في تفسيره للملفوظات القرآنية المتلبّسة في مقامِها تفسيرًا يفضي إلى كشف المعرفة الإدراكية للمتلقي المتصف خطابُه بالبليغ، والهدف من استنباط هذه المعايير هو محاولة ترقية الخطاب المفضول، عن طريق الاستفادة من كمالات النظم القرآني في معالجة قصور الخطاب الإنساني (الخطاب العربي البليغ).

ويمكننا – بناءً عليه – تشكيل المعاني الإعجازية المتصلة بالنظم القرآني (العشرة (10)) في أربع (04) ملاءمات تفاضلية، نعرضها كما يلي:

أ. الملاءمة غير المناولية: أو يمكن نعتها **بالملاءمة غير القالبية**؛ وتضمّ هذه الملاءمة معنيين إعجازيين، ويتعلّق الأمر بالمعنى **الأول** والمعنى **الخامس**، والمقصود بالملاءمة غير المناولية أو غير القالبية هي أنّ النظم القرآني قالبٌ لم يعهد العرب نظمه، ومنوالٌ لم يتقفَّ أثرَ المناويل التي درج العرب على انتهاجها، من شعرٍ وسجعٍ وقولٍ مرسلٍ، وهذا ما قصده أبو بكر الباقلاني بالمعنى الإعجازيّ الأول، وفي ذلك يقول: « ... نظم القرآن على تصرّف وجوهه ... خارجٌ عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختصّ به، ويتميّز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد. ... ويبقى أن نبيّن أنّه ليس من باب السجع، ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر، لأنّ من الناس من زعم أنّه كلام مسجّع، ومنعم من يدّعي أنّ فيه شعرا كثيرا، ... أنّه خارج عن العادة، وأنّه معجز... »[18]، فمن خلال ملاحظة الباقلاني للنظم القرآني وتفسيره للملفوظات المتلبّسة في مقامها تفسيرًا أفضى إلى كشف المعرفة الإدراكية للمتلقي المتصف خطابُه بالبليغ؛ أيقنَ بأنَّ هذا النظم كشف القصور الحاصل في خطاب البلغاء من العرب؛ وذلك أنّ التقيّد بقالب معيّن أو منوال مخصوص (شعر/ سجع/ قول مرسل) يُفقِد المنتوج البلاغي الطاقات التعبيرية والفنية التي تتمتع بها القوالب الأخرى والمناويل المغايرة، وعليه تكون المعرفة قاصرة عند البلغاء العرب بسبب عدم مكنتهم من الإفادة من جميع القوالب والمناويل، أمّا النظم القرآني فمتحرّرٌ من التبعية المنوالية القاصرة، فلا هو بشعرٍ ولا بسجعٍ ولا بقولٍ مرسلٍ، ولذلك نجد العرب بفصحائهم وبلغائهم أعيتهم الحيلة في تصنيف القرآن في منوالٍ معين، فتجدهم ينعتون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالكاهن لما وجدوا في نظم القرآن من أسجاعٍ خاصة به، كما في سورة (الرحمان) وسورة (الواقعة) مثلا، وينعتونه بالشاعر لما وجدوا في نظم القرآن من ميزانٍ خاص به يشبه أوزان بحورهم الشعرية، غير أنّ النظم القرآني ليس بشعرٍ ولا ينبغي أن يوسم بهذا الوسم، وإنْ التبس عليهم الأمر في تواردت بعض الآيات بوزنٍ شعريّ معهود، ولتوضيح هذا الأمر قال الزركشي في فصل (في تنزيه الله القرآن عن أن يكون شعرا): « ... قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً . فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ [العاديات/ 1،2] ونحوه قوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً . فَالْحَامِلاتِ وِقْراً . فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً﴾ [الذاريات/ 1-3] وهو عندهم شعرٍ من بحر البسيط ... ويحكى أنه سمع أعرابي قارئا يقرأ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ قال: كسرت إنما قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ . . . . إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج/1] فقيل له: هذا القرآن وليس بشعر ... وحينئذ فالذي أجاب به العلماء عن هذا بأن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا وأقل الشعر بيتان فصاعدا وإلى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الإسلام ... »[19]، لسنا في هذا البحث بصدد إعادة ما أكّدته كتب الإعجاز من نفي الشعرية والسجعية الكهنوتية عن القرآن الكريم، بل نصبو في هذه السانحة إلى إثبات أنّ النظم القرآني متمتّع بكافة الطاقات التعبيرية من خلال عدم تقفّيه لأي منوال أو قالب، وهو مع ذلك متفرّدٌ بقالبه ومنواله المتميّز، فهو متمتّع بالأوزان الخاصة به، وبالأسجاع المعروفة عنه، وبالأقوال المرسلة التي لا يوصف نظمها بأنّه موزونٌ أو مسجّعٌ، وعليه فالنظم القرآني متمتّعٌ بكافة الطاقات التعبيرية التي عجز العرب عن الإتيان بمثلها، وهذا ما عبّر عنه الباقلاني في المعنى الإعجازي **الخامس**، والذي نصّ فيه على: « نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام [الجن، كما يخرج عن عادة كلام الإنس]. فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا »[20].

هذه الملاءمة مثلما أنّها تبيّن خصيصة الخطاب القرآني بصفة عدم الاعتماد على المنوالية، وتوضّح موطن قصور الخطاب العربي البليغ المتمثلة في اعتماده المنوال والقالب الجاهز، فهي تُسعف البلاغيين العرب وتُرقي خطاباتهم إذا ما استفادوا من الجمع بين منوالين فأكثر بشكلٍ مقنعٍ ومتّسقٍ مع المعاني الحاملة لها.

ب. ملاءمة المَرانة النظمية: أو الملاءمة ذات **الطواعية النظمية**، وتضم هذه الملاءمة أربعة (04) معاني إعجازية ساقها الباقلاني في كتابه موضوع البحث، ويتعلّق الأمر بالمعنى **الثاني والثالث والرابع والعاشر**، والمقصود بملاءمة المرانة النظمية هي ما اتصف به النظم القرآني من طواعيةٍ في الطول، وفي شمولية التصرف في جميع الوجوه، وفي الانسجام البديع في الانتقال بين المعاني المختلفة، وفي تسهيل السبيل إلى نظمه مع امتناع المطلب وعسر التناول، أمّا مرانة الطول فكانت في المعنى الإعجازي الثاني، الذي قال فيه الباقلاني : « ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر. وإنما تُنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة ... »[21] ، وأمّا المرانة والطواعية في شمولية التصرف في جميع الوجوه، فكانت في المعنى الإعجازي الثالث، والذي قال فيه الباقلاني: « وهو أنّ عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرّف فيها: من ذكر القصص، ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار...»[22]، ومصداق تفاوت فصحاء العرب وتباينهم في إجادة لون دون آخر ما حكاه « الأصمعي عن أبي طرفة: كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كلب ... وقيل لكثير – أو لنصيب –: فقال: امرؤ القيس إذا ركب ... »[23]، وأمّا المرانة والطواعية في الانسجام البديع في الانتقال بين المعاني المختلفة، فقد كان في المعنى الإعجازي الرابع، والذي قال فيه الباقلاني: « وهو أنّ كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بيّنا في الفصل والوصل،

والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد ... حتى أنّ أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري، مع جودة نظمه، وحسن وصفه – في الخروج من النسيب إلى المديح ... [إلاّ] أنّ القرآن يجعل من المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حدّ الآحاد. وهذا أمر عجيب»[24]، وأمّا المرانة والطواعية في تسهيل السبيل إلى نظمه مع امتناع المطلب وعسر التناول، فقد كانت في المعنى الإعجازي العاشر، والذي قال فيه الباقلاني: « أنّه سهّل سبيله؛ فهو خارجٌ عن الوحشيّ المستكره، والغريب المستنكَر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريبا للأفهام، يبادرُ معناه لفظَه إلى القلب، ... وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير المتناول ...»[25]، وذلك لأنّ النظم القرآني « يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، فكلا الرأيين متقاربان، ولكنه يصعب علينا معرفة أيهما أسبق بالفكرة من الثاني؛ لأنهما كانا متعاصرين ... »[26].

إنّ هذه الملاءمة المُستنبطَة من تفسير الملفوظات المتلبّسة في مقامِها تفسيرًا أفضى إلى كشف المعرفة الإدراكية للمتلقي المتصف خطابُه بالبليغ، من خلال إدراك مواطن القصور لدى فصحاء العرب، والمتمثلة في قصر نَفَسِهم فيما يؤلفون ويُبدعون، وفي عدم مُكنتهم من شمولية التصرف في جميع الوجوه التي يعرضون لها، وفي عدم إتقانهم للعبور بين المعنى في شكل منسجم ومقنع، وعليه فتفصيل أبي بكر الباقلاني في المرانة النظمية أو التأليفية من شأنه أن ينبّه فصحاء العرب إلى المواطن التي يجدر بهم معالجتها في خطاباتهم قصد ترقيتها وتطويرها.

ج. ملاءمة التشكيل البلاغي البديع: والمقصود بملاءمة التشكيل البلاغي البديع هي طواعية النظم القرآني للاستجابة لمختلف الألوان البلاغية باتساق مقامي منسجم، وبرونق توظيفي للكلمة في الكلام القليل والكثير، وهو الشيء الذي أعجزَ العربَ على الإتيان بمثله، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[27]، وكانت الحكمة الإلهية ترمي من خلال هذا النظم القرآني في تشكيله البلاغي البديع إلى « أنّه المناسب الذي يعرف به العرب معنى الشيء الخارق لما عُرف، والخروج عن طاقتهم، فإنّه لا يدرك أثر ذلك إلاّ هُم، ولا يعرف مقامه إلاّ مَنْ على أعلى درجة من الفصاحة والبيان »[28]، وتضمّ هذه الملاءمة المعنيين الإعجازيين السادس والثامن، من مجموع المعاني التي جمعها أبو بكر الباقلاني؛ أمّا المعنى السادس فقد كان مُثبتًا لطواعية النظم القرآني ومرانته في استجابته لمختلف الألوان البلاغية باتساق مقامي متسق، وقال الباقلاني فيه: « أنّ الذي ينقسم عليه الخطاب، من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوّز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم موجودة في القرآن. وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم، في الفصاحة / والإبداع والبلاغة»[29]، وأمّا المعنى الثامن فقد بيّنَ فضل الكلام ورجحان فصاحته وبلاغته في نظم القرآن مقارنةً بكلام فصحاء العرب، بحيث إنّ الكلمة فيه يتجلى رونقها في تضاعيف كلام كثير، وفي ذلك يقول الباقلاني: « وهو أنّ الكلام يتبيّن فضله ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام ... وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرةُ جميعه، وواسطةُ عقده، والمنادى على نفسه بتميزه وتخصصه، برونقه وجماله، واعتراضه في حسنه ومائه ... »[30]، وسرُّ السحر في ذلك كلّه راجعٌ رأسًا إلى وضع كلّ كلمة في موضعها الذي ينازعها فيه أي كلم، حتى تراهُ صُبَّ صبًّا نسقيًا واحدا، يعجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله، من حيث إنهم « ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة وروعة ... »[31].

إنّ هذه الملاءمة المُستنبطَة من تفسير الملفوظات المتلبّسة في مقامِها تفسيرًا أفضى إلى كشف المعرفة الإدراكية للمتلقي المتصف خطابُه بالبليغ، من خلال إدراك مواطن القصور لدى فصحاء العرب، والمتمثلة في قصور القدرة على تشكيل خطاباتهم وتلوينها بمختلف الوجوه البلاغية بالشّكل الذي لا يُداخل البسط فيه مكان الاقتصار، ولا الاستعارة موضع التصريح ...الخ، وبالدقة التي تكون فيها الكلمة غرةَ جميع الكلام في نظمه، وواسطةَ عقده، وتركيز الباقلاني على هذه الملاءمة المُمثلة في المعنيين الإعجازيين السادس والثامن تعمل على ترقية خطابات الفصحاء من العرب من خلال وضع الكلمة في الموضع الذي ينازعها فيه كلم، وعرض الأسلوب المناسب بالوجه البلاغي الذي يتلاءم معه.

د. ملاءمة البراعة والتدقيق: والمقصود بملاءمة البراعة والتدقيق هي ما اتصف به النظم القرآني من طواعيةٍ في إبراز المعنى البارع الذي لم يُسبق من ذي قبل، ومن مرانةٍ في إبداءِ المعنى الدقيق الذي يقوم على براعة الاحتباك الحسابي، وتضم هذه الملاءمة المعنيين الإعجازيين السابع والتاسع اللذين ساقهما أبو بكر الباقلاني في كتابه، وقد عرض المعنى السابع في قوله: « وهو أن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة ... فإذا برع في اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر ...»[32]، وإنّما المراد من هذا المعنى من جهة الملاءمة بيان قدرة النظم القرآن على سوق اللفظ البارع للمعنى البارع مع سهولة السبيل وقرب التناول، أمّا المعنى التاسع فيُعنى بالاحتباك الحسابي؛ وذلك من خلال غُنيةِ ذكرِ بعض الحروف لدلالة ذكرِ بعضها الآخر عليها، وقد قال الباقلاني في ذلك: « أنّ الحروفَ التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفا، ليدلّ بالمذكور على غيره، وليعرفوا أنّ هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم »[33]، ويضرب لذلك مثلا آخر في قوله: « فمن ذلك أنهم قسموها إلى حروف مهموسة،

وأخرى مجهورة. فالمهموسة منها عشرة: وهي الحاء، والهاء، والخاء، والكاف، والشين، والثاء، والفاء، والصاد، والسين. // وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة. وقد عرفنا أنّ نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور. وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء، لا زيادة ولا نقصان »[34]، ويردف إلى هذين المثالين أمثلة عديدة لا يتسع المقام لسردها، وقد كانت كلها شاهدةً على مرانة النظم القرآني في إبراز الدقة الاحتباكية للإعجاز العددي للقرآن الكريم.

إنّ هذه الملاءمة المُستنبطَة من تفسير الملفوظات المتلبّسة في مقامها تفسيرًا أفضى إلى كشف المعرفة الإدراكية للمتلقي المتصف خطابُه بالبليغ، من خلال إدراك مواطن القصور لدى فصحاء العرب، ورسم المثال الذي ترقى به الخطابات إلى القدرة على استيعاب اللفظَ البارع للمعنى البارع أو المتداول، أو اللفظ المتداول للمعنى البارع، والقدرة على إتقان الاحتباك الحسابي أو العددي، ومثلُ هذه البراعة وكذا التدقيق - إضافةً على أنّها تنطق بسمو الإعجاز القرآني – يعملُ على ترفيع الخطاب المفضول بفضل الخطاب الفاضل فنيا وتبليغيا.

الخاتمة

إنّ القراءةَ المتأنيةَ والمستعينةَ بآلياتِ نظريةِ الملاءمةِ للمعاني الإعجازية العشرة التي فصّل فيها أبو بكر الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن)، والتي بناها على مقتضى المفاضلة بين النظم القرآني وكلام الفصحاء من العرب، لتفضي إلى ترقية الخطاب العربي الفصيح، ومعالجة مواطن القصور، وذلك عن طريق إعطاء الأنموذج المتميّز الذي يرسم الطريق الصحيح للرفع من مستوى الخطاب العربي الفصيح، وإن كان هذا الأنموذج معجزا، ومن تلك الملاءمات الناجعة عدم التقيد بالمناويل المتداولة، وإكساب النظم مرونة في الاستجابة إلى موجبات طول النَّفَس التأليفي في مختلف الألوان النظمية مع الاستغراق الشمولي والانسجام المطلوب في العبور بين المعاني المتواردة، ويضاف إليها ملاءمة التدرّب على مهارات التشكيل البلاغي البديع؛ قصدَ وضع الوجه البلاغي المناسب في مقامه الملائم، مع ملاءمة البراعة والتدقيق التي تُكسب مُنتهجها تَقَانة الاحتباك الحسابي أو العددي.

الهوامش

1- أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية – دراسة في الوظيفة والبنية والنمط -، مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – لبنان، ط 1 – 2010، ص 22.

2- أبو الحسن الرماني، النكت في إعجاز القرآن من كتاب (ثلاث رسائل في الإعجاز، للرماني والخطابي

وعبد القاهر الجرجاني)، تح: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3 –

1976، ص75.

3- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت – لبنان، (د.ط)-(د.ت)، 12/531 مادة (لأمَ).

4- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة – مصر، 2008، ص 1452 مادة (لأمَ).

5- J. Moeschler et A. Auchlin, Introduction à la linguistique contemporaine, 3e édition, Paris, Armand colin, 2009, P178

6- ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة (أفعال الكلام) في التراث اللساني العربي -، دار الطليعة، بيروت – لبنان، ط1 – 2005، ص 36.

7- نفسه، ص 36.

8- J. Moeschler et A. Auchlin, Introduction à la linguistique contemporaine, P 179,180.

9- Ibid, P179.

10- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 38.

11- ينظر: نفسه، ص 38، 39.

12- J. Moeschler et A. Auchlin, Introduction à la linguistique contemporaine, P 180.

13- إبراهيم خليل، الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط 1 – 1997، ص 17.

14- نفسه، ص 17.

15- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط5 – 1954، ص 33 – 35.

16- نفسه، ص 35.

17- ينظر: نفسه، ص 35 – 47.

18- نفسه، ص 35.

19- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ط1 – 2004، 2/ 75، 76.

20- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 38.

21- نفسه، ص 36.

22- نفسه، ص 36.

23- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ط1 – 2001، 1/85.

24- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 38.

25- نفسه، ص 46.

26- محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، دار الهداية، مصر، ط2 – 1995، ص 38.

27- البقرة / 23.

28- أحمد جمال العمري، الباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني- نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري-، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، (د.ط)- 1989، ص 18.

29- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 42.

30- نفسه، ص 42، 43.

31- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتبة رحاب، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص189.

32- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 42.

33- نفسه، ص 44.

34- نفسه، ص 44.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم (برواية ورش عن نافع)**

1. إبراهيم خليل، الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط 1 – 1997.
2. أحمد جمال العمري، الباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني-نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري-، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، (د.ط)- 1989.
3. أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية – دراسة في الوظيفة والبنية

والنمط -، مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – لبنان، ط 1 – 2010.

4. الباقلاني أبو بكر، إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط5 – 1954.

5. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، القاهرة – مصر، (د.ط) – (د.ت).

6. ابن خلكان أبو العباس ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت – لبنان، (د.ط) – 1978.

7. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ط1 – 2001.

8. الرماني أبو الحسن ، النكت في إعجاز القرآن من كتاب (ثلاث رسائل في الإعجاز، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني)، تح: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3 – 1976.

9. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ط1 – 2004.

10. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة – مصر، 2008.

11. محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، دار الهداية، مصر، ط2 – 1995.

12. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة (أفعال الكلام) في التراث اللساني العربي -، دار الطليعة، بيروت – لبنان، ط1 – 2005.

13. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتبة رحاب، الجزائر، (د.ط)، (د.ت).

14. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت – لبنان، (د.ط)-(د.ت).

المراجع الأجنبية

- J. Moeschler et A. Auchlin, Introduction à la linguistique contemporaine, 3e édition, Paris, Armand colin, 2009.